المشرق

المضاربات التجاريَّة

نظر للاب شرل لوسان اليسوعيّ

كتب سنة ١٦٧٥ احـد كبار الاقتصاديين من ذوي العقول النيّرة والمدارك السامية العلّامة ساڤاري في مقدمة بعض كتبهِ ما تعريبهُ : انَّ من اعتبر عمل الخالق بتقسيمهِ الخيرات في انحاء المعمور لا يشكُّ في انهُ تعالى اراد بذلك ان يجمع القلوب في الالفة البشريَّة على الوداد والتحابّ ومن ثمَّ لم يشأ ان يجد الانسان في مكان واحد كلّ ضرورات معاشهِ بلْ اعطى كلّ بلدٍ قسـمًا من المرافق لتأتلف بذلك الشعوب وتدفع بهم الى المؤاخاة حاجة بعضهم الى بعض . فانَّ الحياة البشريَّة لا تهنأ الّا بوفرة الخيرات ولا تتوفَّر الخيرات بدون المعاملات التجاريَّة والمقايضات (١

لعمري انّ هذا الكلام منطوق الحكمة عينها وهو ينبيُ بمقصود المتاجرات السامية ويثبت شرف غايتها . ولا جرم لانَّ الخالق اذ قضى على الانسان بالشغل ليَنال خبزهُ بعرق جبينهِ لم يشأ ان يبهظهُ تحت ثقل حملٍ لا يطيقهُ ولذلك قسَّم الاشغال بين افراد الجنس البشري لينال كلّ منهم حسب شغلهِ نصيبًا وافرًا من الارزاق المتنوّعة بواسطة المبادلات والتجارة . وبتقسيم الاشغال تقوم سنَّة الحبّ بين البشر لانَّ كلّ فئة منهم لا يكتفي بطلب منفعتهِ الخاصَّة بل يشتغل للعائلة البشريَّة كلّها وتنمو الخيرات دون ان يُنزَع عن احد رزقهُ

فيحصل من هذا المبدأ العـام انَّ المتاجرات من اقوى دواعي العمران ولشدّ الضوامن للسلام بين الدول الّا انَّ هذه المعاملات تقتضي سننًا ثابتة وقوانين راهنة اذا

(١) راجع كتاب ساڤاري في مثال التاجر (le parfait Négociant)

عدل عنها المرء أدّت به الى تشويش نظام الخلق وفتحت التاجر باباً واسعاً لظلم العباد

والحقُّ يُقال انَّ اجدادنا كانوا يبنون معاملاتهم التجاريَّة على تعرفة معلومة لم يتجاوزها اهل البيع والشراء فكانوا حدَّدوا لكلّ سلعة ثمنها مع مراعاة احوالها من نقل ومصاريف وشغل وخسارة وضرائب وربح معتدل بحيث يمكن البائع ان يستفيد من تعبه ولا يُغبَن المشتري بتأدية الاثمان الفاحشة وكانت الحكومات اذا اقتضى الامر ذلك تضرب على ايدي المتبايعين عند تجاوزهم طورهم او تدافع عن حقوقهم وترد عنهم المزاحمات الجائرة التي تبخس تلك الحقوق

على أنَّ ارباب التجارة منذ زمن قريب لم يقنعوا بهذه المكاسب العادلة ولمَّا رأوا في اسواق التجارة اموالاً وافرة وخيرات زائدة طمح فكرهم الى الاستغناء القريب والاكتساب العاجل ولاذوا بالمضاربات الخطيرة فصارت اثمان السلع بعد ثبوتها تتقلَّب بين صعود وهبوط ورخص وغلاء لا تقرُّ على قرار . واضحى التاجر متحيّرًا قلقًا لا يعلم على ايّ قاعدة يبني حسابهُ لانَّ قيمة السلع لم تَعُدْ تقاس حسب ثمنها بل على مقتضى رواجها ورواجُها منوط في الغالب بذوق الزبائن وتغيير الازياء حينًا بعد آخر فترى اصحاب الزيّ الجديد يقبلون اليوم على بضاعة وينفقون عليها النفقات الطائلة ثمَّ يهملونها في غدٍ حتى يكسد سوقها فلا تُباع بنصف حقها . وهكذا اصبحت البضائع في ايدي المشترين كالالعوبة في ايدي الطفل يتلاهى بها قليلًا ثمَّ ينبذها نبذ النواة وقد حصل من هذه التقلُّبات انَّ صاحب التجارة صار يجري على اهواء المشترين فيلتجئ الى المضاربات والتخمينات ومزاحمة رصفائهِ بايّ واسطة كانت تارةً بالتزوير والتمويه وتارةً بالاشاعات الباطلة والاعلانات الكاذبة فيُصبح اهل الذمَّة والاستقامة في خمول وتبقى بضائعهم في زوايا مخازنهم خاملةً ولا يلبثون ان يبيعوها بصفقة خاسرة الى ان يضطرَّهم سوء الحال الى تصفية محلّهم

ولعلَّ القارئ يوقفنا هنا فيقول ألَا ترى ما في المزاحمة من الفوائد فلولاها لبقي ارباب التجارة والصناعة على اساليبهم القديمة دون أن يترقّوا مع اهل عصرهم فلا ينالون جدوى من الاكتشافات الجديدة والاختراعات المستحدثة

قلنا انّنا نقرُّ بفضل هذه الاختراعات وبما ادَّتهُ من الخدم للمعاملات التجاريَّة سواء كان بوضع آلات جديدة سريعة العمل او باستنباط موادّ بخسة الثمن قريبة المنال

ومن ثمَّ ان تأخر ارباب الحرف عن استعمالها فلا يحقُّ لهم ان يلوموا الَّا نفوسهم . لكن الامر ليس كذلك غالباً فان كثيرين من اصحاب المعامل وكبار التجار حفظاً لسمعتهم القديمة ومراعاةً لبراعتهم المشهورة ارادوا ان يحسّنوا مصنوعاتهم وفقًا لهذه الاكتشافات فتكلّفوا المال الكثير لجلب الادوات ولم يدّخروا وسعًا في اكتساب رضى زبائنهم ومجاراة احذق العمّال . لكنَّ مساعيهم ذهبت مع ذلك ادراج الرياح لانَّ المزاحمين ليس همهم في الغالب جودة العمل بل البهرجة والرونق الظاهر فيبيعون البضائع باثمان بخسة لا توافق التجار المستقيمي المعاملة . ألَا ترى مثلًا في بلاد الشام رواج بعض البضائع الاجنبيَّة فالكل يتهافتون عليها مع انها دون منسوجات دمشق وزوق وحلب في صفاقتها وحسنها . وما ذلك الَّا لهوادة اسعارها . وكذا قل عن طنافس العجم وسجادات ازمير وعكّار التي تبقى دهرًا دون ان تبلى او تبور الوانها فيتوارثها الابناء عن اجدادهم ومع هذا ترى الاكثرين يفضّلون التقليدات المستحدثة لرخص اسعارها

فهذه الاسباب وغيرها من جنسها صارت كضربة لازبة سقطت لاجلها بيوت عامرة وافتقر كثيرون من اهل الثروة الذين اقفلوا محالّهم وعاشوا معتزلين في دورهم قاطعين الرجاء من دنياهم . ومنهم من طلب الخدَم العموميَّة فضاق عنهم نطاق الاشغال . ومنهم من اخلَد الى البطالة . وما ادراك ما البطالة هي رأس كل الآثام وباب كلّ الفظائع

*

وما المضاربات التجاريَّة الَّا ثمرة هذه الحالة السيئة لانَّ كثيرين اذ رأوا سبل المكاسب المعتدلة مقفلة في وجههم استبدلوها بهذه المعاملات الخطرة متهوّرين فيها امَّا لهم واماً عليهم . وكانت هذه المضاربات سابقًا محصورةً في بعض الحدود الَّا ان الطمع وسّع الخرق وزاد الشرّ تفاقمًا لا سيَّما بعد ان رأى المضاربون بعض رصفائهم قد بلغوا بهذه المقامرات الى ثروة واسعة في وقت قريب فلم يعودوا يقفون عند حدّ وتجاروا في هذا المضمار لا يردُّهم عنان ولا يثنيهم صوت منذر

على اننا بقولنا السابق لا نريد كون المضاربات التجاريَّة على اختلاف اجناسها تُوثم المرء وتثقل ذمَّتهُ بتبعة الخطيئة . كلَّا فانَّ المضاربات من ذاتها ليست حراماً كما انها قديمة العهد جدًّا . فانَّ يعقوب اذ باع من اخيه عيسو حقوق البكوريَّة بأكلة من

العدس انما ضاربهُ مضاربةً . وكذلك يوسف الحسن ضارب المصريين اذ جمع قمحهم في اهراء فرعون باثمان متهاودة في سبع سني الخصب ليبيعهم اياه بثقل الذهب في سني المجاعة . فمن يزعم انَّ ذلك اثمٌ ؟

والمضاربات تكون على صور شتَّى لا يفي بها احصاء ولا يكاد يخلو منها عمل تجاري او صناعيّ . فانَّ الزارع اذ يجلب الماء الى حقلهِ بكلفةٍ كبيرة رجاء تحسين ارضهِ يأتي بصنفٍ من المضاربات . وكذلك يضارب ربُّ البيت الذي يشتري جزافاً مؤنة بيتهِ ليتلافى النقص والمجاعة . ومن ذلك مضاربات الحكومة فانَّها مثلاً اذا رأت بَواديَ مهملةً تؤمِّل اصلاحها بالحضارة فانها تنشئ فيها سككاً حديديَّة لتعمر بالسكَّان . وبوجيز القول انَّ المضاربات قوام التجارة وحياتها ان بقيت في حدود معلومة . ولا غرو فانَّها هي التي تجعل بعض الموازنة بين البلاد فتنتقل ما يزيد في بلد لتسدَّ بهِ عوز بلد آخر ولولاها لقُضي على بعض جهات المعمور بفقر مؤبَّد واصبحت غيرها في خصب زائد لا تستفيد بهِ شيئاً من الارباح

وربَّما كانت المضاربات نجاةً من مخالب المحتكرين لبعض السلع ووسيلةً لاختراعات عجيبة كما حدث لِمُعدِّني الكبريت في صقلّية فانَّ شركتهم رفعت اثمان الكبريت الى حدّ فاحش فاخذ الكيمويون يبحثون عن وسيلة لاستنباط هذا المعدن فوقفوا على طريقة استحضارهِ من الحامض الكبريتي المكنون في معادن البيريت

فترى انَّ للمضاربات التجاريَّة منافع جمة ومن ثمَّ لا ننكر صلاحيَّتها بالاجمال وانَّما ننفي مضارَّها الناجمة عن سوء استعمالها اذ صارت كالسيف الذي يجرح صاحبهُ بدلاً من ان يردَّ عنهُ هجمة العدوّ . والمضاربات التي شاعت اليوم اصبحت آفةً للهيئة الاجتماعيَّة بعد ان كانت مسهِّلةً لاسباب الالفة مدعاةً لنموّ الخيرات . اما تعليل هذا الاختلاف فلِما صارت اليهِ هذه المضاربات الحديثة من سوء الاحوال وما اتَّصفت بهِ من الاوصاف المستقبحة

واوَّل هذه الخواصّ السيئة انَّ المضاربات اصبحت اليوم إلزاميَّةً فانَّ التجَّار اذ رأوا انَّ المقايضات لم تَعُد تأتي بالارباح المأمولة وانَّهم لو ارادوا تصريف بضائعهم لَما امكنهم ذلك الَّا بالخسارة لِما يلحقهم من النفقات في جلبها ونشر الاعلانات عنها

وتهويد الاسعار لزاحمة رصفائهم اضطروا الى استبدالها بالمضاربات مؤملين منها الارباح القريبة وتركوا العمل الشخصي والهمة الذاتية التي تؤدي بالمرء الى التقدم وتصون ماء وجهه بالعز والشرف فخاطروا بمالهم اما بتسليمه لبعض المصارف التي تعدهم المراعيد الطائلة والمكاسب العظيمة وهي قائمة على جرف هار او وضعوا معظم ثروتهم في اشغال هوائية محفوفة بالمخاطر معرضة لتقلبات سريعة غير منتظرة. وان سألتهم عن سبب سلوكهم هذا واظهرت لهم غلطهم اجابوك: « انَّ التجارة لم تعد تغني بحاجاتي ولعلها تؤدي بي الى الافلاس فالاولى بي ان أخاطر بمالي فان ربحتُ والَّا فلا مناص من الافتقار »

والآفة الثانية اللاحقة بهذه المضاربات أنها اضحت اشبه بالمقامرات. لانَّ عملياتها ليست مبنيَّة على اثمان السلع في ذاتها بل على اثمانها الحاضرة الوهميَّة فترى المضاربين حول موائد البورصة يتلاعبون بمال الناس الذين عهدوا اليهم بثروتهم على امل الربح فتارةً يضمنون القطن وحيناً يحتكرون السكر فيبيعون ويشترون ويصعدون الاسعار ويهبطونها املاً منهم ان يكسبوا قيمة فرق الاسعار وربَّما ذهبت آمالهم سدًى وبينما يؤملون الربح الوافر تراهم يخسرون كلّ اموالهم فينزلون من اوج العزّ الى قعر المسكنة. ولا حاجة لوصف هذه المضاربات وكيفيتها وقد كتب فيها جناب الاديب ميشال افندي الياس سماحه فصلاً حسناً نشرهُ في المشرق (٧: ٣٢٦—٣٣١) فنحيل القرَّاء الى مراجعته. وما لا ينكر انَّ المعاملات التجاريَّة اضحت اليوم ملعباً في ايدي المقامرين لا تضمن بثروة ثابتة لمن يجعل ماله في قبضتهم وكأني باسواقها اشبه ببلاد كلابريَّة التي دهمتها الزلازل منذ زمن قريب فلم يَعُد سكَّانها آمنين على حياتهم والارض تميد بهم وتضطرب او تشبه السراب الذي يخدع به المسافر في البريَّة فيموت عطشاً في الساعة التي يؤمل فيها الرواء وشفاء غلّته

وفي المضاربات الحديثة آفة ثالثة وهي كونها مهلة في ايدي بعض الافراد لا ضامن لها من قبل الدولة او الحكومة. ولمَّا كان هؤلاء الافراد في الغالب قليلي الذمَّة خالين من الاستقامة تراهم يقلبون في ساعة قيمة البضائع ظهراً لبطن فحيناً يحتكرون السلعة فيرفعون اسعارها ويحوجون المشتري على ابتياعها. وبخلاف ذلك اذا احتاجوا اليها بخسوا اثمانها واشاعوا بعدم رواجها ليشتروها من ضامنيها دون قيمتها فيكسرون مزاحمهم

ويزيدون زيادةً لاعتبارهم كما يزعمون . على انَّ نوائب الدهر واقفة لهم بالمرصاد وكثيرًا ما يقعون في الهوّة التي حفروها لغيرهم . وبسقوطهم يسقط الوف من الناس الذين سلَّموهم ثمرة اتعابهم وارباحهم مدَّة سنين طويلة فيندمون على فعلهم ولات ساعة ندم . ولنا في مسألة السكَّر مثال حديث يثبت قولنا (راجع البشير ٢١ آب ١٩٠٥)

وكلُّ هذه الآفات اللاحقة اليوم بالمضاربات التجاريَّة جعلت احوال المجتمع الانساني في خطر دائم حتى اصبح الناس يتمنَّون رجوع الاحوال القديمة وهيهات ان تعود بعد دخول هذه المقامرات في حياة الشعوب وانتشار الغشّ والخداع في المعاملات اليوميَّة امَّا نحن فنصادق على كلام فرنكلين الشهير حيث قال : « اذا اتاك احد يبشرك بالغنى القريب دون شغل واقتصاد فلا تُصغ اليهِ بسمعك فانَّهُ مكَّار خدَّاع »

ومجمل القول انَّ المضاربات لا غنى عنها في التجارة على شرط أن لا تتجاوز طورها فتبقى أمةً للتجارة مساعدةً لها دون ان تتسلَّط عليها كالسيدة وتقوم مقامها ولولا بقاؤها عند حدودها تنحي من اكبر آفات الهيئة الاجتماعيَّة وتعرّضها لضروب المخاطر

وان سأل القارئ هل من دواء لاصلاح المضاربات الخطرة اجبنا ان ذلك لصعبٌ جدًّا وانَّا تستطيع الحكومات ان تسنَّ لها سننًا عادلة لتلافي اضرارها وتصدّ التلاعب والخداع بين المضاربين . وقد اطلعنا على قوانين الدولة العليَّة في هذا الشأن فرأيناها مملوَّة حكمةً فلا يبقى لاهل بلادنا الَّا ان يتأمَّلوها ويجروا على حسب منطوقها فتزدهر التجارة وتتحسن الاحوال في ظلّ المتبوع الاعظم حقَّق الله آمال جلالته لخير رعاياه

رحلة

اول سائح شرقي الى اميركة

(١٦٦٨ — ١٦٨٣)

عُني بنشرها وتعليق حواشيها الاب انطون رباط اليسوعي (تتمَّة)

٤٨ الذهاب الى مكسيكو (Mexico) او (Mejico) — وصف القرمز

ثم سافرنا الى قرية سانا تيتيبك التي تبعد ستة فراسخ ثمَّ الى قرية استينبك تسعة فراسخ ومنها الى قرية اقانيتبك ثم الى بلد خلاپا وفي هذا البلد كان حاكم يسمَّى دون خوان